بسم الله الرحمن الرحيم

**قصص قصيرة**

احتراق الفؤاد

وقصص أخرى

الشيخ ولد أحمدو

بسم الله الرحمن الرحيم

**قصة قصيرة**

**احتـراق الفـؤاد**

**الشيخ بن أحمدو**

**2016**

 نظر إليها في وله، شجعته على الحديث إليها، رغبة جامحة لا يستطيع مقاومتها.

حدثها طويلا وتجاوبت معه تتقاسم معه نفس الشعور.

سبح في عوالم حالمة، أراد أن يسافر فيها إلى غير رجعة.

كانت كلماته ترانيم وجودية موسيقية خدرها بها كعادته، فلم تعد تعي شيئا، ولا تريد أن تعي شيئا.

إنها ترى نفسها معه أسعد امرأة في العالم، لم لا ترى نفسها كذلك؟

وهو يردد على مسامعها أن أكثر ما يخيفه أن تشعر في أي لحظة أنها غير سعيدة.

حدثها، كانت عيناها سحرا، وكلماتها سلما صعد معه إلى عوالم عجز في كنه ذاته أن يدرك حقيقتها.

لكنه في خضم عبوره إلى تلك العوالم أحس به يسقط متسارعا صوب هوة بدت له عميقه ومخيفة.

تكدر صفوه ولم يعد يستطيع إخفاء شعوره الذي فضحه منعكسا على صفحة وجهه.

شعرت بلسعات في أنحاء جسمها جراء ما شاهدت، ولفظت الكلمات، تكاد تلفظ أنفاسها:

* ما لك؟

ما بك؟

* لا شيء، لا شيء

ولكنه ازداد أسى، وظهر لها يتقطع رغم محاولات لإخفاء ما يعاني منه، بدت لها يائسة، فعادت بوله تتساءل:

* بالله صرح لي بما تعاني منه.
* لا شيء، لا شيء

وبدا يحاول أن يعود إلى وضعه العادي وأن يركز على عينيها، يظهر ابتسامة عجز أن يظهرها غير صفراء.

انزعجت، خافت من أن يكون مصابا بمرض عجز عن إخفائه، وهي العارفة بحقيقته.

لقد كررت عليه مرارا أنه لا يستطيع أن يخفي عنها أي تصرف حتى ولو كان أفكارا تجول في خاطره.

أثناء معاناتها اتضح لها أنه يعود بتسارع إلى وضعه يبتسم، ويزيد من التركيز على عينيها.

ولم يلبث أن تدفق كالنسيم يعيدها إلى عالمها الأول بكلماته التي تقطر ولها.

فكان الأسى والتأوه هذه المرة من نصيبها:

 تكدر صفوها، وبدون أن تسمح له أن يعبر عما يشاهد منعكسا عليها من أسى، تمتمت:

* فهمت، يبدو أنك فكرت في واقعنا.

وحاول أن يجيبها بعد أن أعادته إلى واقعه:

* لا، لا، أ، إني... إني...
* لا، لا تلف ولا تدور، هو واقع يجب أن نجابهه ونجد له حلا.

لقد ناقشنا هذا الموضوع عدة مرات وأنت الذي ترفض حله.

صحيح أنني امرأة، ويجب أن أخضع لمسلكيات صارمة، أو يَسِمَني المجتمع بالجنون والخروج على عاداته وتقاليده، ومن ثم الطرد والنفي إلى عالم المنبوذين.

ولكنني اكتسبت من التجربة، ويحيط بي من الأمثلة المشابهة لواقعنا – والذي تسير مثيلاتي فيه بتسارع إلى النهاية المؤسفة المعروفة -: ما يجعلني أصر على البحث عن حل لمشكلتنا، ما دام في المدة تأخير.

كان يستمع إليها، ومع كل كلمة تفوه بها يسير وجدانه وعواطفه في منحنى متعرج، يرتفع إلى أعلا مع تخيله أملا يبرز من حديثها، ويهبط إلى نقطة الانطلاق عندما يتصور ذلك المصير المخيف بالنسبة له، بعد حدوث ما كان دائما يخيفه، ولا يريد أن يصل إليه.

يتصور الخطوات المؤدية إلى ذلك المصير المخيف، ويوم يواجه به من طرف المعنيين.

فيكاد يبكي عند ذلك التصور.

ويكاد يقفز إلى أعلا ضاحكا عندما يتصور العكس.

طال سهومه وتحديقه فيها وكانت هي تقرأ أفكاره، فحاولت هذه المرة التخفيف عنه.

ابتسمت، ونومت العينين:

* آه، ماذا قلت؟

استعاد الكثير من حطامه شاعرا بأجزائه تعود إلى حيث كانت، بعد أن كان يحس بنفسه ينفصل منه الجزء تلو الجزء.

وتنفس الصعداء:

* وتسألين؟

ماذا سأقول؟

هل أنا أرفض؟

أنت تعلمين أني موافق منذ زمن ليس بالقريب!

* عجبا لأمرك!

تصر دائما أنك موافق ولكنك لا تتبع القول بالفعل.

* إذا كان الأمر كذلك، فإني أؤكد لك أن الفعل لا ينفعل بنفسه.
* اسمع، عليك أن تعرف أن التمنطق والتفلسف وانتظار المجهول قضينا فيها برهة والآن حانت ساعة الحسم.

لم يخامره شك في أن قلبه يريد أن يخرج من فمه، يريد أن يهرب بعيدا ويتركه جثة هامدة.

لقد هاله بل راعه، أسلوبها الجديد المتحدي الصارم.

فكر وفكر...

استلذ السهوم وأراد أن يهرب فيه من واقعه الذي تصحر فجأة من أي أمل لإرجاعها هذه المرة عما تصر عليه.

أعادته من سهومه مرة أخرى:

* تكلم، ماذا أنت فاعل بنا؟
* ألف خير إن شاء الله.
* وألف تأكيد من جانبي على أن لا داعي للف والدوران، عليك أن تحسم.

أتريد أن يتهمك الآخرون بالجبن؟

أتعتقد أن أمرنا بقي خافيا على أحد؟

هذه المرة لم تتجه الضربة إلى حيث كان يتلقى الضربات، بل اتجهت إلى شخصه كرجل، يستطيع أن يقرر أو يرفض، يقتحم ينجز...

حاول أن ينتئ من تحت الركام وتساءل مرة أخرى:

* وهل أنا أرفض؟
* آه، عدنا إلى لازمة الأغنية!

يجب أن تقرر:

نذهب أو لا نذهب! هذا هو لب المشكلة. وعليك أن تجيب.

ولَفِظَهَا يتقطع:

* نذهب.

وبدون أن تظهر إعجابا بموافقته ألحت عليه:

* متى؟
* الأمر إليك فانظري ماذا تقررين أيتها الملكة.

ابتسمت غصبا عنها:

بل أرد عليك الأمر والقرار معا.

بادلها الابتسامة غصبا عنه:

* ليكن بعد أسبوع.
* ليكن.

**رياح "إرِيفِي"**

 ذهبا كل يسبح في عوالم مخالفة لما يسبح فيه الآخر.

 هو خاض التجربة والمعاناة خلال أسبوع الانتظار وكان يموت عند كل هاجس مؤلم ينتابه ويحيا عند كل آخر مناقض، فخرج من التجربة أكثر تقبلا لما يخبئه القدر.

 أما هي فقد اندفعت إلى الذهاب إلى ما هما ذاهبان إليه خوفا من المستقبل الذي قد يكون بائسا، ولم تفكر في أمور أخرى ولم تشعر بها إلا بعد أن جلسا ينتظران دورهما:

 طلعت من بين جوانحها هواجس حاولت بداية رفضها، ولكنها ألحت عليها في خضم هواجس الانتظار المختلفة حتى كادت تنطق عاليا:

 أتكون هي لحظة النهاية؟

أم لحظة البداية الحقيقية؟

وسبحت في أفكار المرأة التي وجدت أنها دفعت بنفسها إلى عالم لا تعرف ما سيسفر عنه، إذ لم تكن تفكر إلا في جانب واحد من جوانب حياتها.

أما الجوانب الأخرى التي قد تكون أحيانا أكثر إيلاما للمرأة، فلم تفكر فيها.

وأزفت اللحظة الموعودة، ووقفا، تقدما إلى حيث جلس صاحبهما.

وقفا أمامه، ولاشك أنه إذا كان تفحصهما سيلاحظ عليهما نوعا من الاضطراب.

وبدون اكتراث:

* تفضلا، هل لي، أن أكون ثالثا لكما؟

نثرا أمامه ما دفعهما إلى مشاركته لهما فيما ضنا به عن أعز الناس عليهما.

وبدأت رحلة الصعود والهبوط:

السلالم

الدم

المعنويات.

وبعد حين من الوقت حسباه حينا من الدهر هبت:

 **الرياح الساحلية**

خرجا من عنده يبتسمان.

خرجا يحملان ورقة وحزمة من التعليمات.

خرجا وفي الطريق حدثها:

* إني أشعر اتجاهك، ليس بألف امتنان وامتنان، بل بكل الأرقام الضوئية من هذا الذي يسمى الامتنان والعرفان بالجميل.

إني أشعر بضيق في أحيان كثيرة من هذا الكلام الذي لا يستطيع أحيانا أن يعبر عن كل ما يجيش في خاطر الإنسان.

ابتسمت فرأى نفسه يختزل في عينيها، لكنها هذه المرة وبكل ارتياح:

* أتريد أن تعود للتفلسف مرة أخرى بعد أن اجتزنا العقبة؟
* لا، لا، لا، لا أريد أن أعود لما تسمينه التفلسف ولكني أريد أن تسمحي لي بأن أغير المثل الشائع وأقول:

إنه وراء كل جبان في اجتياز عقباته امرأة عظيمة.

* إنك تبالغ، لقد كنت تتهرب من واقع قد تقع فيه عندما تتحقق من وقوعه.

وأنا كنت مدفوعة بخوف من وقوع في واقع شاهدت أخريات وقعن فيه، وهو أكثر إيلاما مما تخافه أنت.

* إنك تقعين في ما تحذرينني منه، إنك تفلسفين واقعنا الماضي.

واقعنا الماضي، تلك الصحراء المعطشة الموحشة.

لا تبالغ!

أنا أيضا ممتنة لموقفك اتجاهي، فلولاه لصرت أمثولة لدى المجتمع يجلدني بمقارعه وسياطه.

لقد أحطتَ تصرفي بسرية تامة، وكنتَ تستطيع أن تسلك مسالك الكثير من أمثالك في هذه المناحي ولك الحق في ذلك والمجتمع سيكون لصالحك، والنتيجة تعرضي للنفي والنبذ.

وليسمح لي المجتمع مرة أخرى أن أكسر قيوده وأحطم زنازينه لأقول لك إنك رجل عظيم.

اكتست وجهه جدية لم تعهدها فيه منذ زمن بعيد وخافت من أن تكون خدشته.

هي تعلم أن تقاليد المجتمع وقيوده تسمح له بالتعبير عن أحاسيسه أكثر مما تسمح لها.

ولكن انتظارها لم يطل، وكانت مفاجأة أخرى لها تتلقى كلماته:

* بل أنا تافه، تافه، بل أتفه من التفاهة نفسها، أنا التفاهة المتحالفة مع السقوط، ولكن الذنب ليس ذنبي!

الذنب ذنبك!

فغرت فاهها، فانزاحت الشفتان عن أسنان وثغر أرجعاه طفلا غرا لا يعرف يومه من أمسه وتمنى أن تظل على تلك الحالة.

في تلك اللحظة بدا لها على حقيقته، فعادت إلى وضعها تحاول الاعتذار:

* أعلم أني مذنبة في حقك فقد كان جزعي يجعلك تسرع خطانا.
* تكونين مخطئة إذا كان ذلك هو اعتقادك!
* أي ذنب آخر جنيته إذن؟
* ذنبك كوني مدفوع إلى التفاهة بحب جنوني يفقدني لعقلي، وأي تصرف يمكن أن يكون ناتجا عن التفكير السليم، لقد كنت في طريقي إلى الجنون، وليسلط علي المجتمع ما شاء من المقاريع وسياط الجلد.
* أنت لست في طريقك إلى الجنون، بل جننت بالفعل.
* صدقت يا حبيـ...

ولكنها لا شعوريا مدت يدها لتسد فمه، فعرف مغزاها:

* لن أكمل، لن أكمل، أعلم أني تخطيت الحدود...

نحن في الشارع والمجتمع يسلط علينا مصوراته وكاميراته وتلسكوباته.

ارتدت إليها يدها تلقائيا كما لو كانت لسعتها عقرب أو جمرة...

وسقطت في بحر من الإحراج.

**عاودا صاحبهما مرات ومرات،** وفي نهاية إحدى المعاودات حدثهما:

* "لقد فُتِح سجل لحقوق كائن بشري منذ مدة قصيرة".

وانشغل عنهما بمشوار همومه.

لو كان نظر إليهما في تلك اللحظة لوجدهما مخدران حيث يجلسان.

وخرجا من عنده ولأول مرة منذ أمد ليس بالقصير داعبهما نسيم التيار الساحلي المنعش.

هذه المرة لم يتفقد العينين الواسعتين ولا الوجه المستدير، تخطى الصدر الواسع والثديين اللذين كان يغار عليهما من الصدريات ونسي تماما الساقين الانسيابيتين وما يتصل بهما علويا من بديع صنع الله.

هذه المرة بقي مشدوها لا يكاد ينزع عينيه عن الانبساط المستوي تحت الثديين تدفعه رغبة جامحة في تقبيله يكرر:

سيزول ذلك الانبساط رغم أنفك.

**صرخات حلوة**

وجاء... دخل في حياتهما، كان ولدا جميلا، ملأ عليهما حياتهما سعادة بعد أن كادت تتحول إلى قاحلة.

كان بكاؤه وصراخه لحنا جميلا في أذنيهما يوقظهما بكاؤه وهنا من الليل فيشعران بالتخدير...

يتحسسه أحدهما ليشعره بأن هناك من يهتم به، وقبل أن يسكت يكون المتحسس استعاد نومه، والبكاء نغمات وموسيقى حالمة في أذنيه تدفعه للاستغراق في النوم.

لم يزهدهما في الاهتمام به ظهور حاملة للضمير المغاير في حياتهما، بل تفانيا في الاهتمام بالإثنين.

وقد ازدادا حبا له عطفا على الضمير المغاير، وربما أيضا لأن تمايزا بدا مع الأيام يفرض نفسه:

لقد أضحت هي أكثر اهتماما بها، وأضحى هو لصيقا به:

يذهب معه إلى حيث يرتاد الرجال، وتعرف وهو لا يزال صغيرا في بداية مشواره الدراسي على:

الأسواق، الورشات، الموانئ، المطارات، المكاتب والإدارات، الحقول...

مما ولد فيه حبا للعمل وعزوفا عن الدراسة حتى صرح لهما أنه سيترك الدراسة ويشتغل وهو لا يزال يعبر سنته الثانية عشرة.

**موسم "اشريكيه"**

تطورت هوايته حتى تسرب من المدرسة وصب كل اهتمامه في العثور على عمل يخفي ذلك عنهما بعد أن رفضا له العمل مطلقا.

ولسوء حظه ما لبث أن فقدهما مبكرا في بداية مشواره الجديد وفي وقت كان في أمس الحاجة إليهما.

لقد ذهب أحدهما إلى العالم الآخر، وسرعان ما ارتبطت هي بشخص آخر شغلها باهتمامات أخرى.

بقي وحيدا يصارع واقعه الجديد وحاول بكل إخلاص وتفان أن يبرع في عمله الذي عثر عليه بصعوبة:

لقد أحب عمله وتفانا فيه، كيف لا وهو هوايته وأمله في الحياة.

لكن ما سمح به ذكاؤه وهوايته، ربما لن تسمح به عضلات الطفل الذي لا يزال في سن متقدمة من العمر:

إن الذكاء يوجه ولكن العضلات تحرك، لذلك شكلت العضلات بداية عائقا دون تحقيق الإنجازات التي كان يطمح لها.

هكذا تنبه وعول على أن لا ينهزم أمام نقص السن وما يصحبه من نقص في القوة، ولكنه بقلبه الصغير الكبير في نفس الوقت وذكائه المتقد حاول أن يعوض ذا بذاك.

فكان في عناد مع تلك الآلة:

عناد يصل أحيانا إلى درجة الصدام، يجرب قدرته على إنجاز ما لا يستطيع إنجازه، فتنبه رؤساؤه في العمل لوضعه فدفعوه للمزيد من المواجهة مع أضخم تلك الآلات وأصعبها وأكثرها تعقيدا كهربائيا وألكترونيا.

ولكنهم من مسؤولية الرئيس عن من يرأسه رعوه وأحاطوه بعناية وإرشادات وتخويف وتحذير يحالون مع ذلك أكبر الاستفادة من ذكائه الذي بدا لهم خارقا.

وتمادى في الصراع والصدام مع الآلة الضخمة المعقدة:

كلما حقق إنجازا يزيده ذلك اندفاعا، ويزيد رئيسه المباشر في دفعه إلى مستويات أهم عنده وأكثر مردودية عليهم وأخطر عليه من سابقاتها.

لكن رئيسه ظل يحذره دائما.

واصل مشواره يبرع باستمرار ورئيسه يدفعه إلى المزيد ويحذره.

واصل الصعود حتى بلغ القمة، وعين على أضخم الآلات وأكثرها تعقيدا وهو يعبر سن الخامسة عشرة.

وتساءل رئيسه المباشر:

هل يستطيع هذا الطفل الخارق الذكاء الصعود حقيقة فوق القمة أم يسقط؟

أم يبحث عن ما بعد القمة؟

هو يواصل اقتحام العقبات، ولكنه يجرب بنفسه!

إن ذكاءه بلا حدود! وطموحه بلا حدود.

هكذا تساءل وهكذا أجاب نفسه.

**رياح السموم**

غرقت هي في مشوارها الجديد مع الشخص الجديد، ونسيت أهم تفاصيل حياتها السابقة.

كانت مرة تجلس في تحفة ربما سماها البعض صالونا والآخر متحفا.

تتابع فيلما غراميا، يجلس بالقرب منها من ارتبطت به تنظر إليه من حين لآخر فيخدر تماما.

وكلما أراد المخدر التخلص من جسمه، تنظر إليه مرة تبتسم أو تكلمه فيستسلم لقدره.

دخلت إحدى العاملات وبأدب:

* سيدتي، رجل بالباب يريد أن يكلمك.
* دعيه يدخل.

دخل الرجل في عجلة من أمره لا تلفت انتباهه أبهة المكان ولا الشخصين:

* أنت السيدة جرفونه بنت كباد؟
* نعم.
* لك ولد اسمه: اعمر بن وليد
* ولد اسمه: ... لي ولد، عندي ولد اسمه: أعمر أبوه وليـ... أوه وليـ...

واقتحمت عليها ذاكرتها واقعها الحالي وفي عدة ثوان مر عليها شريط ماضيها:

أيام ارتباطها بالفقيد، وكيف عاشا فترة دون أن يزدادا، وكيف كان هو يخاف من الذهاب إلى ما ذهبا إليه حتى لا يفاجأ بأن المشكلة منه وكيف كانت هي تخاف من الزمن والتحول إلى زهرة ذابلة، وكيف دخل حياتهما ذلك الطفل الجميل الذكي المهذب، و... و... و... فأجابته بسرعة:

* آه، ما بال الطفل؟
* لا، هو باختصار... تعلمين أنه يعمل في شركة للآلات الضخمة الميكانيكية والكهربائية والألكترونية، كان يعمل اليوم على إحدى الآلات بجانبها آلة أخرى من النوع المحرم على غير الخبراء العارفين، انتهز لحظة نزول الخبير عنها فاعتلاها وأراد تشغيلها تحت صيحات الخبير الذي كر عائدا إلى الآلة يأمره بتركها، لكن بعد فوات الأوان:

ضغط الطفل على زر فاشتعلت الآلة.

مطلوب منك القدوم فورا إلى المستشفى وتسلمه، تشجعي لقد...

عند وصوله إلى هذا المقطع من حديثه: مر شريط الذاكرة من أمامها تدقق النظر في الطفل الجميل تداعبه مع الفقيد.

وأضاف الرجل:

* تشجعي إنه...

صرخت واثناء سيرها الحثيث إلى فقدان الوعي سمعت بما بقي لها منه:

* إنه مجرد قطعة فحم.

وتحولت هي إلى قطعة هامدة فاقدة للوعي.

الشيخ بن أحمدو

انواكشوط 24 اكتوبر 2916

بسم الله الرحمن الرحيم

**قصة قصيرة**

**دروب الظلام**

**الشيخ بن أحمدو**

2016

أراد أن يسافر إلى إحدى المدن الداخلية، فأكمل إعداد حقيبة السفر عند تسرب خيوط الفجر وخرج من الباب يودعه أبناؤه، يكاد يترك قلبه خلفه.

الأبناء لا يزالون صغارا وهو سيقضي أسابيع في مدن نائية من الوطن.

قطع خطوات على صوت أحد أبنائه الصغير:

* رعاك الله يا أبي، لا تنسى تجلب لي هدية جميلة عندما تزمع العودة.
* وهو كذلك يا ولدي، سأجلب لكم هدايا جميعا حفظكم الله ورعاكم، اهتموا بأختكم الصغيرة، تعلمون أنها تحبوا دائما وقد تلمس أشياء تضرها أثناء غفلة أمها عنها أو عندما تكون نائمة...

وتقدم نحو المحطة، كانت لا تزال شبه خالية من مزمعي السفر.

سيارات عدة تشعر هيئة توقفها أنها اختطفت بدايات الطوابير.

وانفتح الشريط الدعائي على موسيقى جميلة:

هيا أيها المسافر إلى أم المحطات، محطتنا رائدة، سيارات في كل الاتجاهات.

هل تعلم أيها المسافر أننا نفكر في الصعود إلى الفضاء؟

هيا، هيا:

بتلميت، ألاك، مقطع لحجار، كيفه، الطينطان، العيون، تمبدغه، النعمة.

هيا أيها المسافر إلى الجنوب: تكند، المذرذرة، كرمسين، روصو.

هيا أيها المزارع لا يفتك الموسم في بوغي، كيهيدي، امبود، سيلبابي.

هيا إلى العمل في المعادن والصيد وجني التمور:

هيا، سيارات مريحة متجهة إلى اكجوجت، أطار، ازويرات، انواذيب، المجرية، تجكجة،.

إننا نغطي كل الاتجاهات.

سيارات ستغادر تباعا بعد لحظات.

اشتروا تذاكركم.

هيا، أحصلوا على المقاعد الأمامية...

**اشترى** تذكرة المدينة التي يقصد، وفي وقت مبكر اكتمل الركاب فكانت سيارته أول السيارات المنطلقة.

خلال الطريق كان ينجز في ذهنه كل المهام التي ذهب من أجلها، لم يقطع شريط أفكاره من حين لآخر، سوى ثرثرة الركاب ونقاط التفتيش وعبور المدن الداخلية.

وقبل النزول في استراحة الغداء، كان أنجز في ذهنه نصف مهامه تقريبا.

وصل المدينة وفي عزمه إنجاز عمله والعودة مسرعا حتى لا يبطأ عن أطفاله الذين لا يزالون صغارا.

**لكنه التقى بها**، فكان اللقاء فرصة للقاءات عديدة أسفرت عن ارتباطهما بزواج غير معلن، وكان البيت الجديد محطة لقضاء أيام في طريقه إلى مدن أخرى والعودة منها عندما يذهب في إنجاز أعمال معينة.

ولم يلبث ارتباطه الجديد أن أثمر طفلا، تعهده بالرعاية لكنه أحاط وجوده في محيطه الاجتماعي الخاص بسرية مطلقة.

**رب صدفة خير من ميعاد**

لقد اتخذها عادة فكان كلما سافر إلى مدينة من الوطن نائية عن مدينته الأصلية يرتبط بأخرى وفي أحيان كثيرة ينجب أطفالا.

ومع تطور أعماله زادت أسفاره ومهامه إلى مدن نائية أخرى.

في المدينة التي قصد هذه المرة انهمك ينجز المهام التي قطع مئات الكيلومترات من أجلها، وفي أحد الأماسي كان عائدا إلى حيث ينزل بعد يوم حافل بالإنجازات:

**اعترضت سبيله**، كان الطريق ضيقا، تخيل نفسه انجذب يقترب منها بسرعة زائدة.

علل ذلك المسلك، ربما بسبب عطر نسائي أخاذ غطى ذلك الحيز من الطريق.

اقترب منها غصبا عنه، ولشدة ضيق الممر:

* عفوا سيدتي حتى أمر.
* وعليكم السلام، أتعتبرني عقبة كأداء إلى هذا الحد؟

تصاغر في نفسه يعصره الخجل من سلوكه، يحاول الاعتذار إليها وهو ينسى أن الأولى له والثانية عليه.

* السلام عليكم، عفوا سيدتي، كنت في عجلة من أمري.
* يفهم من "كنت"، أنك لم تعد في عجلة من أمرك.
* ربما، ولكن ليس كل ما يتمن المرء يدركه.

علمت أنها تكلم شخصا من غير النوع الذي اعتقدت، وأرادت أن تتعرف عليه أكثر:

* أنت الآن هو الذي تسد الطريق على المارة، أرجو أن تنصفني.

تنحى قليلا عن الطريق إلى الجهة التي تقف فيها هي، وتضلع أكثر من عبق العطر النسائي:

* أرأيتِ أني لم أعد في عجلة من أمري.
* ذلك شيء يخصكَ.

أرغمه جوابها على تفحصها:

بلا شك تعبر عقدها الرابع، مكتنزة الجسم، جميلة، تظهر عليها آثار النعمة، وأراد أن يتعرف عليها أكثر:

* بطبيعة الحال أعلم أن شؤوني تخصني، وأهم من ذلك أني كنت أسمع أن أهل هذه المدينة يكرمون الضيوف.
* آه، أنت ضيف، مرحبا بك، لاشك أن من تنزل عنده سيكون أكرم وفادتك.
* ليس هناك شيء يمنعني من البحث عن الأحسن.
* ذلك من حقك.
* لكنهم قديما قالوا:

إذا حدثتك النفس أنك قادر على ما في يد الرجال فكذب

* ذلك إذا كان في يد الرجال.

تراخى أكثر ونسي أنه كان يجد في المسير إلى حيث ينزل، يريد أن ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا...

وتأكد أكثر من ذلك أن من يخاطب ليست متزوجة، وطفق يقلبها مرة أخرى ويهتم بها أكثر.

* سيدتي، هل لي أن أعرف مصير من أصيب بسهم في قلبه، هل سيصاب بشجة في رأسه إذا اقترب من منزلكم؟

تقدمت في طريقها، فلم يعد باستطاعته إلا أن يسايرها.

سارت وسار إلى جانبها يحاول سبر أغوار ما يحيط بها ولكنه تأكد أنها تعمدت منذ سارا معا، إبقاء ما بقي خافيا عنه من حقيقتها مجرد لغز.

توقفت أمام باب دار فخمة وطرقت الباب الذي فتح ودخلت من دون أن تعرض عليه الدخول.

لكنه تشجع يقتفي أثرها في ممر فاصل بين غرف الدار.

دخلت صالونا فسيحا بوهي بفرشه.

جلست على أريكة بدون أن تعرض عليه الجلوس ولكنه جلس.

* اتخذتها منزلا؟
* أنا ضيف أبحث عن تحسين الإقامة.

أثناء تناول الشاي علم أن اسمها سلم وأنها مطلقة ولها أطفال والمنزل ملكها.

خرج يستأذن في العودة، وبعد أيام اتفقا على زواج من النوع الذي أصبح هوايته المفضلة.

**للهاتف طرف آخر**

أثناء إقامته معها كان يتصل بمنزله الأصلي، لكن الاتصال هذه المرة كان من زوجته في مدينته الأصلية:

* لقد تأخرت شهرا عن الوقت الذي كنت تزمع العودة فيه، الأطفال الصغار اشتاقوا لرؤيتك، بلا شك سيكون الكبار منهم اتصلوا بك، نرجو أن لا يكون اعترضك عائق كبير.
* نعم، نعم، لقد صعب علي إنجاز بعض المهام وسأكون معكم بعد أسبوع.

في ليلته الأولى في منزله الأصلي لاحظت زوجته تغيرا ما طرأ عليه لم تستطع فهم أبعاده ولا حقيقته.

هذه المرة اشترى شريحة جديدة استخدمها في الاتصال بزوجته سلم التي بقي يمني نفسه بالسفر إليها عند أول فرصة.

بعد أيام قليلة افتعل المبرر وسافر إليها، ولما كان يستعد للعودة إلى مدينته الأصلية أخبرته بأنها حامل.

ارتبك بداية، فهو لم يكن يبحث عن طارق جديد من سلم، كان يريد سلم بدون متاعب، وربما اعتقد بداية أن سنها لا تسمع لها بالإنجاب، ولما لاحظت ذلك تغيرت سحنة وجهها، فداعبها:

* نحن هناك نكره البنات، وقد خفت من أن تلدي طفلة، فيقولون طفلة أمها "برانية" ولن تتزوج فينا.

زواج المرأة عندهم من ابن عمها لا يزال مرغوبا.

استحت وغلب الحياء على وجهها، ثم أجابته بعد برهة:

* لقاؤنا الأول، هل كان سيحدث ما حدث لو كنتُ رجلا؟

ضحك حتى كاد ينسى ما أصيب به عندما أخبرته بحالها:

* استودعتك الله أنت وما تخبئين، لن أبطأ عليكما، أرجو أن يكون ابنا يشبهني، وتكون له لقاءات أخرى مع أخريات أولى وثانية، هكذا أريده.

تورمت وجنتاها ولم تجد بدا من الرجوع إلى الوراء تغلق الباب من خلفه.

فوصلها صوته يبتعد:

* مع السلامة، اهتمي بنفسك وبالوديعة التي تحملين أكثر من اهتمامك بنفسك.

**اكتسى مسار حياته وضعا روتينيا**: تطورت أعماله وأضحى يسافر في سيارة فاخرة، يتخذ من مدينة منزله الأصلي مركزا لاستقراره وأعماله وعندما يحين سفره لإنجاز عمل من أعماله الروتينية في إحدى المدن التي أنشأ بها منزلا ثانويا يمر عليه مر السحاب ويخصص الكثير من وقته لمدينة سلم.

ويبدو أن سلم استوعبت وضعه، فصارت تحيطه أثناء وجوده في مدينتها بما ينسيه هموم السفر.

**ما كل ما يتمن المرء يدركه**

ولدت سلم طفلة تشبهها إلى حد كبير سمتها نائية، وعزته فيها:

* إنها ليست ابنا وتشبهني جدا، هكذا أراد خالقها.
* إني أحببتها جدا لأنها تشبهك، ولا أنكر أني كنت أريدها طفلا، لكني أستغرب الاسم الذي اخترت لها؟
* ألم تقل إنكم تكرهون البنات من أمهات من غير محيطكم؟
* بلى،
* لذلك سميتها نائية.
* الآن فهمت، إنها ليست نائية، إنها قريبة جدا، لقد أصاب شبهها بك قلبي بسهام جديدة، إني سأسميها سهام.
* لا،لا.
* بل، نعم، كلنا يسميها ما يصادف هوى في قلبه.

حقيقة، حزن بداية لأنها لم تأت طفلا، ولكنه مع الزمن أحبها.

كانت بنتا جميلة، ذكية، مهذبة، ما لبث أن ازداد حبا لها لأن سلم أتبعتها بولدين يكاد الرائي لهما يحلف أنهما نسخة مستنسخة منه.

وكان دائما يوصي نائية بهما:

* أنت عاقلة وتكبرين أخويك، أصويك بهما خيرا حتى يكبرا.

 **مرة كانت سلم تجلس معه في الصالون**، فتنبه لها تريد أن تحدثه بشيء بدا له مهما، فسره أن يفسح لها المجال:

* تفضلي، إني أراك تريدين أن تقولي شيئا.
* بالضبط، كأنك تقرأ أفكاري.
* تفضلي، تفضلي.
* أعطني عهدا أنك لن تغضب مني.
* أعطيك عهودا كثيرة، تفضلي.
* حسنا، إنك تعلم أن نائية تعبر الآن سنتها السابعة عشرة، وابنيك والحمد لله لا يفصلهما عنها الكثير.
* أعرف ذلك، ادخلي في الموضوع.
* هل يعقل أن يبقى هؤلاء غرباء لا أهل لهم؟
* هل هم لقطاء؟
* لا، ما لهذا قصدت.
* ماذا تقصدين إذن؟
* أقصد أنهم لا يعرفون إلا أخوالهم.
* آه، اتضح لي الآن ما تريدين.

وتغيرت سحنة وجهه، اهتمت به أكثر، فوجدته قادما من السعير، فبادرت:

* ألم تقل إنك لن تغضب؟

إننا نناقش مسألة تتعلق بأفلاذ كبدك.

أخذ يعود إلى وضعه الطبيعي ولفظ الكلام يكاد يبكي:

* ابنتي سهام ليست فلذة من كبدي، إنها كبدي وعقلي وروحي ولكن... و...

قاطعته:

* ولكن ماذا؟
* ولكن، ألم نتفق على إخفاء أمورنا؟
* صحيح، ولكن ذلك منذ ثمانية عشر سنة خلت، هل يمكن أن نخفي امرأة اسمها نائية قلت إنها جزء من كيانك، ونستمر في إخفاء شابين على عتبة البلوغ؟

إنك لا تعاني ما أعاني، إن أسئلتهم تزداد، وكان آخر سؤال طرحه علي ابنك إطول عمر منذ أيام:

أمي، إني أعرف أخوالي وخالاتي وجدتي أمك وأقاربك ولكن أين أعمامي وعماتي وأبناء عمومتي؟ هل هم في مدينة أخرى.

فلم أجد إلا أن أصرفه عن الجواب بالتحايل عليه.

بقي صامتا، وأخيرا تكلم:

* أنت تعلمين أن إفشاء هذا السر سيحطم بيتي هناك، سيجعلني في ستين داهية، وربما اقضي بقية عمري وأنا أرد على أسئلة لا تنتهي وسخرية مستمرة و... و...
* هل ترى كل هذا مبررا لإخفاء رجلين وامرأة؟

وهل تعتقد أنهم مع تقدمهم في العمر سيرضون بأن يظلوا مقطوعين من أهلهم؟

نحن تقدمنا في العمر والموت يطارد الجميع.

* لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقف يذرع الصالون جيئة وذهابا، وهي تنتظر خطوته اللاحقة، وأخيرا تنور وجهه:

* لقد وجدتها، لقد وجدت حلا.
* بشرك الله بخير، كيف هو؟
* أنا ما دمت حيا فأنت تعلمين أن الأولاد لا مشكلة لهم، ولتجنب ما يطرحه المستقل من مشاكل، سأوقع وثيقة أسجلها عند الموثق أبين فيها نسبهم ووضعهم وما وهبت لهم مما أملك، وأسلمها لك.

فإذا شاء الله أن كنت السابق للموت فما عليهم إلا الإدلاء بها.

سكتت، ولم تجب، فألح عليها:

* تكلمي، هل هذا الحل يرضيك؟ قولي شيئا.
* ماذا سأقول؟ إنه حل مؤقت غير كاف، إنه أشبه بدفن الرأس في الرمال.

والله العظيم لولى "..."، واللبيب بالإشارة يفهم، وما أحطتني به من رعاية طيلة ثمانية عشر سنة الماضية لما قبلت هذا الحل الذي أراه مؤقتا وليفعل الله ما يريد.

**من يختفي بالأيام عاريا**

 مرت سنتان ونائية تعبر سلم الحياة مع شقيقيها إلى جانب أمها وإخوتها من أمها، لكنها مع تقدمها في العمر ازدادت ذكاء وجمالا، فكانت راجحة العقل سليمة التصرف فأضحت نجمة المنزل وفتاة الحي خلقا وخلقا.

 كانت مرة صحبة صديقاتها في حفل زفاف إحدى بنات الحي، لاحظت أن شابا وسيما يركز عليها.

بعد نهاية الحفل وجدنه صحبة شباب تعرف بعضهم أمام خيام الحفل، فألقى عليها التحية:

* من فضلك سهام هل لديك هاتف أتصل منه؟، لقد ضاع هاتفي في الحفل.
* من أعطاك هذا الإسم؟.

إني أرجو أن لا يكون ضاع منك شيء آخر.

* وهل في ذلك من بأس؟
* قد يضيع في الزحام وتفقده إلى الأبد، وعندها أكون أنا قد أبلغتك تعازي مسبقا.

وسرن في طريقهن وكأن شيئا لم يحدث.

قبل أن تخلد للنوم رن هاتفها:

* آلو،
* سهام، أنا الشاب الذي ضاع هاتفه، قالوا لي إنك أنت التي اختطفته، وأنك خاطفة الهواتف و...
* كذبوا عليك، أنا مجرد مسكينة، وأعطوك اسما غير الاسم الحقيقي، أنا اسمي نائية.
* عجبا، أنا أيضا نائي، وكل غريب للغريب نسيب.

أنا من خارج هذه المدينة، ومن ولاية أخرى.

اسمع يا هذا، لو لم تكن غريبا لأسمعتك ما لم تكن تتوقع سماعه، وما دمت غريبا أستسمحك لأني سوف أغلق هاتفي.

حاول أن لا تتصل بي مرة أخرى وإلا ستتعرض لما لن تنساه أبدا.

إني لم أتصور في أي لحظة أني سأكون عرضة لفضول الغرباء.

أغلقت هاتفها ونامت.

في الغد الموالي اتصل بها يعتذر عن اتصاله بها الفائت، وفي المساء جاء صحبة اثنين من الشباب لا يعرفونها، وبمجرد أن ذهبوا وضعت أمها في الصورة.

سألتها أمها:

* فقط هذا هو كل الذي جرى بينكما؟
* يا أمي لقد حدثت البداية البارحة وأنا مع زميلاتي، وتعلمين أني اليوم لم أخرج من الدار.
* متأكدة أنك لم تلتقي به قبل الآن؟
* أبدا، أبدا، لم نلتق قبل الآن.
* يكفيني ذلك، وأنت ماذا ترين؟
* ننتظر، وإذا عاد مرة أخرى تولي أنت أمره، فأنت أم صارمة.
* وهو كذلك يا ابنتي، الحمد لله على ما حباك به من عقل.

 **في نفس المساء** عاد الشاب مع نفس الشابين، يتأكد من يراه أنه تفنن في زيه وقد جاء هذه المرة في سيارته.

 سأل أحد الشابين عن سهام "نائية"، فعلم أنها في غرفتها وأرسلت الأم عاملة المنزل بالزريق والشاي، وظل الشاب طيلة الشاي ينتظر قدوم سهام حتى اكتمل الشاي بدون جدوى.

 بعد انتهاء الشاي طُلِبَ إلى غرفة أخرى، تقدم لا يخامره شك في وجود سهام تتوسط زميلاتها.

 لكنه وجد امرأة تقارب الأربعين بمفردها، رحبت به ودعته للجلوس وتكلمت:

* إني أخت نائية الكبيرة، أرسلتني إليك أمي لتخبرك أن هذا المنزل محترم غير مفتوح لكل من هب ودب، لاحظت وجودك بالأمس هنا، وأخبرتها سهام بما جرى بينكما، إنها تسألك عن ماذا تريد.

ارتبك الشاب ارتباكا شديدا، فلم يكن يتوقع اللقاء، وفحوى اللقاء.

لقد أسقط في يديه تاما، لكنه استرجع رباطة جأشه وأجاب:

* على كل حال أستسمح قبل كل شيء وأعتذر.

حقيقة، هذه عادات هذا البلد مع الأسف، الناس يطرقون المنازل على غير موعد حتى ولو لم تكن تعرف أهلها، هي عادة سيئة ولكنها لا تزال متفشية في مجتمعنا.

رغم ذا وذاك فلا يستساغ أن يعاب على مثلي إذا لاح له برق في مثلها قد يؤدي إلى مطر فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وقد يكون الحال مجرد جهام، وفي كلتا الحالتين لا ضرر ولا ضرار.

ابتسمت المرأة وكبر في عينيها وندمت على إبلاغه رسالة أمها على تلك الصورة، وأضافت:

* أستسمحك، يبدو أننا نغرف من نفس النبع وهذا شيء مهم للغاية.

وأنت ماذا ترى؟

أتريد أن يكون الحال أمطارا أو جهاما؟

* حقيقة أكون أحمقا إذا أعطيتك الآن إجابة، كنت منذ بعض الوقت مجرد رائد أفتش عن مأوى، وكل الاحتمالات مفتوحة.
* صحيح، ذلك هو السلوك القويم، قل لي متى التقيت بها؟
* الليلة قبل البارحة.
* أين؟
* في مناسبة.
* وماذا جرى بعد ذلك؟

فلم يزد على ما قالت سهام.

* انتظر هنا قليلا.

دخلت على أمها والبشر يعلوا وجهها:

* هذا يا أمي شاب مهذب عاقل، يبدو أنه مثقف يعرف أين يضع قدمه حسب ما ظهر لي.

ووضعتها في الصورة.

* قولي له يعود إلينا غدا العاشرة، لا تنسي إبلاغه أنه لن يرى نائية، حتى ذلك الموعد ليكون الاستمرار أو الانقطاع.

قال لها وهي تبلغه:

* ذلك شيء يثلج الصدر ويدفعني للنضال حثيثا حتى أصبح أحد أبواب هذا المنزل.

ابتسمت:

* مع السلامة، إلى غد.

**اتصلت سلم** بزوجها هاتفيا وأخبرته، فبادر:

* هل عرفت عنه شيئا؟
* من حيث؟
* اسمه وأهله ووضعه الاجتماعي، المعرفي، الاقتصادي و...
* لا، ما الفائدة من ذلك؟

أنت حضضت علينا أن أي شخص يتقدم لها نمنعها منه فورا ونتصل بك دون تأخر ودون الخوض معه في أي شيء.

* أحسنت صنعا؛

أبشري، لحسن الحظ سأغادر نحوكم فجرا، لم أخبرك أن المنشأة التي كنا نبني للدولة في مدينتكم سنسلمها بعد يومين.

* صحيح، لقد كنت ستتفقدها قبل التسليم وأخبرتني أنك انشغلت وأرسلت أحد أعوانك يهيئها.
* تماما.
* والشاب ماذا أقول له إذا جاء في الموعد، فأنت لن تصل قبل الزوال أليس كذلك؟، وهو ربما عاد في الموعد.
* لم يترك لكم هاتفه؟
* لا، لأننا لم نطلبه منه، لقد حاولنا بكل صرامة أن تبقى علاقتنا به كما وصفت لك.
* ذلك أحسن، الشباب في هذا الزمن لهم مناحي مختلفة في الحياة، يجب أن نعرف عنه كل شيء، فإذا ارتضيناه لها، عليه أن يواجهها تقبله أو ترفضه، أما إذا لم نرتضه، فيجب أن ينسى الموضوع بحذافره أو يكون سيئ الحظ.

إذا عاد قبل مجيئي أخبريه أن والد البنت سيصل بعد قليل ويمكن أن ينتظر أو يعود في الوقت الذي يريد.

* وهو كذلك، تصلنا بسلام إن شاء الله.

لم يكد الموعد يقترب حتى كان الشاب يدخل الصالون لوحده، دخلت أختها بوجه بشوش واحترام جم، بادلها عبارات الترحيب والثناء، واطمأن هذه المرة يؤكد لنفسه أنه لم يعد غريبا على المنزل وأهله ومنى نفسه بكل خير، كما ظهر غير مستعجل فانتهزت هي الفرصة:

أمي تسلم عليك وتخبرك أن والد البنت سيصل اليوم والدار دارك، وإذا كانت لك أعمال تريد إنجازها، يمكنك الذهاب وتعود في أي وقت شئت.

* شكرا لك، واشكريها نيابة عني، سأعود في المساء، وحيث يشتد الظلام. وبطبيعة الحال سأشتري لثاما ونظارات مموهة للرؤية.

ابتسمت وتشاغلت بمتابعته يخرج من الصالون.

الساعة التاسعة مساء لحظة ما دخلت العاملة على والدي نائية في غرفتهما:

* لقد حضر الشاب الذي أوصيت بإعلامك إذا حضر.
* لوحده؟
* لا، يصحبه إثنان.
* قولي لأحدهما أن يأتينا.

دخل أحد الشابين مؤدبا، وأخذ يتلقى وابلا من الأسئلة من والد نائية وأمها:

* اسمك ووالدك؟
* فلان بن فلان
* من أهل هذه المدينة؟
* لا.
* هل تعرف هذا الشاب؟
* لا.
* متى عرفته؟
* منذ أربعة أيام تقريبا.
* أين؟
* في مناسبة.
* حسن، لا تعرف عنه أكثر من ذلك؟
* أكيد.
* اذهب إليه واسأله عن اسمه وأبيه وأمه ومجموعته وعمله ولماذا جاء إلى هنا ما دام ليس من أهل هذه المدينة؟

عاد الشاب وأضاف:

* اسمه فلان بن فلان أمه فلانة من مجموعة الفلانيين، وهو يعمل في مؤسسة جاء منذ أسبوعين يتفقد عملا هنا.

توقف الشاب عن الكلام، لأنه لاحظ أن والد الفتاة يكاد يسقط، فهب إليه يحاول مساعدته، لكنه سقط صريعا قبل أن يصل إليه، وكانت سلم تستمع فلم يسبقها زوجها للسقوط، فقد تضامنت معه ممدة ولم تعد تعي شيئا.

 حدثت ضجة أخرجت من في الدار يهرعون إلى مصدر الضجة وجاءت نائية وأفراد من الأسرة فكان الصراخ يشتد مع اكتشاف الكارثة.

خرج الشاب من الصالون صحبة صديقه الآخر يكتشفان الأمر فلاحظا أن الكل يهرع إلى الغرفة مصدر الضجيج، تقدما نحوها، واحترق قلبه بداية وهو يشاهد نائية تبكي وكان زميله يحاول إسناد والد الفتاة مع شخص آخر.

هرع إليهما وبسرعة اختطفوا والد نائية، وفي أثرهما نائية وأختها تستند عليهما سلم التي بدت أحسن حال من زوجها، وبعد لحظات كان والد نائية ممددا على السرير في مستشفى المدينة، وبمجرد أن أُدْخلت سلم وشاهدته على تلك الحالة - تحاول التدقيق في الشاب - انهارت وسقطت لتُمدد على سرير بإزاء زوجها.

علم سكان الحي بالكارثة فتدفق بعض الأشخاص إلى المستشفى.

وكانت نائية وإخوتها مشدوهين بالتصرف السريع الذي يقوم به الشاب والطلبات التي يوجها إلى الأطباء.

يتصل هاتفيا يطلب حضور أشخاص ويصدر أوامر لآخرين حضروا.

وقال بعض أقارب سلم:

* يبدو أن خطيب نائية شخصية مرموقة.

**وبعد برهة تحدث الطبيب**:

* لقد زال الخطر عنهما، إنها مجرد صدمة لكنها صدمة عنيفة، سيفيقان بعد دقائق، يبدو أنهما صدما بما لم يستطيعا تحمله.

تنفس الشاب الصعداء وبدأ يعي الأمور من حوله:

نائية (سهام) تجلس إلى جانب والدها وأحد المراهقين يضع يده على وجهه.

امرأة ممدة على السرير إلى جانبها أخت نائية التي كانت تعاوده في الصالون، أشخاص آخرون وقفوا تبدو عليهم علامات الجزع.

تحرك والد نائية، فاقترب منه الشاب حتى وضع يده على ذراعه التي تحمل الحقنة حتى لا يحركها وبعد لحظات فتح عينيه وحملق فيما حوله يسترجع وعيه ويتفحص الأشياء من حوله.

خبأت الأصوات وتكلم والد نائية:

أين سلم؟

أين سهام؟

فقال الطبيب:

إنه في بداية استرجاع وعيه، سيعود إلى وضعه الطبيعي بعد لحظات، وتحركت سلم على السرير وأثناء حركتها تحرك زوجها يحاول أن يجلس فساعده الشاب وأحد الأشخاص حتى جلس على السرير، في نفس اللحظة فتحت سلم عيناها تحاول أن تتكلم بصعوبة وتُطمئنُ الكل أنها أضحت بخير.

سر الطبيب إلى أن الرجل والمرأة تماثلا إلى الشفاء وأضاف:

* أهنئكما، تستطيعان الآن الانصراف، عانيتما من صدمة عنيفة تخطيتموها بأعجوبة، الحمد لله على سلامتكما وعليكما أن تتقيا هذا الذي سبب لكما الصدمة، إنها كانت صدمة قوية.

وتكلم والد سهام (نائية) يسلط بصره على الشاب الذي بدا في وضع مضطرب يكاد يسقطه:

* إنك على حق أيها الطبيب، أي شيء يمكن أن يصدم أكبر مما تعرضنا له.

أنا السبب، سأقولها عاليا حتى لا تتكرر هذه المأساة.

هذا الشاب هو ابني محمد، كان سيتزوج أخته سهام (نائية).

الشيخ بن احمدو

انواكشوط 05 اكتوبر 2016

**قصة قصيرة**

**قبل غروب الشمس**

**الشيخ بن أحمدو**

**2015م**

كان البحر صافيا والأمواج هادئة، وتندر الرئيس في سرور:

* رحلتنا اليوم ستكون ميسورة، والمصيد سيكون مرتفعا...

يا أبنائي ألا ترون البحر صافيا والأمواج هادئة؟

بماذا يوحي ذلك يا تلامذتي؟

تسابق البحارة الصيادون للجواب:

* يعني أيها الرئيس أن قاع البحر تعبث به التيارات، مما يجعل أسماك القاع التي نبحث عنها في رحلتنا هذه، في حركة دائمة، مما يجعلها في متناول سنانيرنا الجائعة.
* أحسنتم يا تلامذتي، أرفع أنت حبل الرسو، وأشعل أنت المحرك، وابدأ أنت في صناعة الشاي، وعلى بركة الله نبحر في اتجاه النقطة 12.

نفذ الصيادون تعليمات الرئيس بسرعة وأصبح الزورق في عرض البحر، يشق صفحة الماء التي بدت هادئة محدثا خلفه انفلاقا غائرا في صفحة المحيط التي يخترقها.

بعد ساعتين من الإبحار صاح الرئيس:

* وصلنا، أنزلوا المراسي، ولتسبقها سنانيركم، علينا أن نسابق الرياح التي قد تهب فتفسد علينا صيدنا.

البحر لا يزال هادئا ولا أريد أن أرى أحدكم يلتفت إلى الآخر قبل مضي ساعتين وبعدها نوموا إن شئتم، ولتهب الرياح كيف شاءت.

تندر أحد الصيادين بدون أن يجرؤ على رفع عينيه عن مراقبة حركة خيطه، هل التقمت السنارة المثبتة في طرفه الآخر، سمكة في قاع المحيط أم لا؟

* سيدي الرئيس، تكفينا ساعة واحدة، إني أشعر بخيطي يثقل وعلى بركة الله أرفعه.

ورفع الصيادون خيوطهم للمرة الأولى بعد الرسو، فجاءت تحمل أسماك: "الميرو" و"اتيوف" الغالية الثمن، وقدر أحدهم زنة إحداها بـ5 كلغ.

ابتسم الرئيس:

* هكذا علمتكم يا أبنائي، سنحصل طنا قبل نهاية الساعة الأولى.

انقطع الصيادون في عملية إلقاء وجذب لا يقطعها إلا فصل السمك المصطاد عن السنارة وشحنها بالطعم من جديد.

لم تمض ساعة حتى ارتفعت كمية المصيد في قعر الزورق بعد أن امتلأ الصندوق المعد للتخزين والمحمل بالثلج، كان حجم السمك يرتفع والرئيس يتابع إلى أن صاح:

* كفاكم، أرفعوا خيوطكم للمرة الأخيرة، وارفعوا المراسي، دعونا نعود بسرعة، تعلمون يا أولادي أن الكمية التي تكدسون في قعر الزورق هي من نصيب بائعات السمك في الأسواق، لقد ارتكبنا اليوم خطئا كبيرا، إذ لم نحمل صناديق أخرى محملة بالثلج، هذه الكمية التي في قعر الزورق سيكون تثليجها ضعيفا، وتلك الشركات الملعونة لن تقبلها، ستشتريها البائعات بأثمان منخفضة جدا.

نحن لا نعمل للبائعات، نحن نعمل لصالح أنفسنا، تلك البائعات التي تهرع إلينا كل تحمل كيسها وتعتقد أننا نعمل من أجلها.

كان الرئيس يتكلم والزورق يكر راجعا بعد أن نفذ الصيادون تعليماته بسرعة فائقة.

ابتسم الرئيس مرة أخرى وأضاف:

* اليوم سنوفر عدة ساعات على الشاطئ، نراجع فيها أخشاب الزورق وننظف المحرك، ونعد صناديق إضافية للغد.

غدا علينا أن نترك البر قبل بزوغ الشمس عائدين إلى هنا قبل أن ينتبه الصيادون إلى تجدد الأسماك في هذا الموقع، ويجدبونه علينا.

كان يتكلم والزورق يشق عائدا صفحة مياه المحيط التي ظلت هادئة.

التفت إلى الخلف ليتأكد أن النقطة بقيت إلى ذلك الوقت خالية من أي زورق. لكن الدنيا أظلمت في وجهه وهو يشاهد كتلة الدم الحمراء التي غطت صفحة المحيط الغربية تتقدم نحوهم بسرعة فائقة وزعق:

* زدوا سرعة المحرك، لا بل أوقفوا المحرك واستعدوا لاستقبال عاصفة هوجاء.

بقي الصيادون داخل الزورق مثل مجموعة النمل التي فقدت قريتها أو طريقها وتعالت صيحات الرئيس وأوامره المتناقضة، ولكن العاصفة كانت أسرع، إذ وصلتهم مقدماتها وزمجرتها تصك مسامعهم، والظلام الدامس تدفعه أمامها، وصاح أحد الصيادين:

* إن سلمنا من هذه العاصفة فنحن سعيدوا الحظ، لم أر مثلها طيلة عمري المهني.

غطتهم العاصفة فلم يعد الصيادون يشاهد بعضهم بعضا، لقد سبحوا في ظلام دامس.

وأحس الرئيس خطورة الوضع الذي اكتنفهم فصاح:

* أرموا الحمولة في البحر حتى لا نغرق.

وطلع صوت أحدهم يخترق زمجرة العاصفة:

* سيدي الرئيس، لم أعد أستطيع فتح عيني.
* يا أولاد الحمير تحسسوا بأيديكم وأرموا أي شيء تصادفونه إذا كنتم تريدون الاحتفاظ بأنفسكم.

دبت حركة في جسم الزورق، وخيل للرئيس أنه اقترب من اثنين من الصيادين يرفعان الصندوق الكبير ويرميانه في البحر، الصندوق الذي كان يمثل أملا كبيرا وفخر ذلك اليوم للرئيس وصياديه، وصاح:

* ألقوا في البحر كل ما تصادفون.

وشعر بدحرجة شديدة تحدثها العاصفة للزورق وارتطام شديد لكتل الحصى على جنباته، أعقبها تمايل شديد، فتأكد الرئيس أن العاصفة في طريقها لقلب الزورق أو تحطيمه، فتذكر المحرك الذي كان يقف قريبا منه، تحسسه فلم يجده.

علم أن الصيادين رموه في البحر لحظة الهلع الذي أحدثه إصدار الأوامر بإلقاء كل شيء في البحر.

زعق:

* أين المحرك يا أولاد الكلاب؟

لا أحد يجيبه، كان الصيادون في شغل عنه، ولم تعد العاصفة تسمح بأي صوت يعلو على زمجرتها.

تأكد الرئيس أنهم في طريقهم للهلاك، حتى ولو توقفت العاصفة وسلم الزورق، هم بقوا عزلا من كل شيء:

ضاع المحرك، ألقي السمك، والماء، والزاد في البحر...

وتساءل في ذلك الظلام الدامس، هل تستطيع خشبة تدحرجها التيارات أن توصلهم إلى البر؟

شعر بازدياد قصف العاصفة للزورق واضطراب عنيف لحركته، فزعق مرة أخرى:

* الزورق يكاد ينقلب، أقفزوا في البحر وتعلقوا بجانبه الموالي لجهة هبوب العاصفة وأبقوا عائمين إلى جانبه.

وقفز في البحر ينفذ ما دار بفكره.

كان على حق، لم يكد يعوم إلى جانب الزورق حتى تأكد رغم شدة الظلام أنه بقي معلقا في الهواء قبل أن يرتطم بالمياه، فتأكد بخبرة المجرب أن العاصفة قلبت الزورق، وأن الذين لم يتمكنوا من القفز يهوون الآن نحو الأعماق، لأنهم لن يتمكنوا من السباحة، أو هم ماتوا، تحسس بيده التي بقيت حرة جسم الزورق عله يلمس جسم إنسان فلم يجد شيئا، إلا أنه تأكد أن يده تتحسس ظهر الزورق.

ثبت يده على ذلك الجسم عائما حوله، والعاصفة تزداد زمجرة.

ولكنه رغم انغماسه في الماء وكثافة كتل المياه التي تضرب وجهه في ذلك الظلام الدامس: أحس بشيء ساخن يسيل على خديه، فعلم أنه يبكي.

يبكي على أولئك الشباب الذين غادروا البر عند بزوغ الشمس يحدوهم الأمل في مصيد ضخم يعودون به ضحى أو زوالا يرتقون به في سلم الحياة ويحقق لهم جزءا من طموحاتهم، ذلك المصيد الذي تأكد أنه الآن في طريقه ليصير بعد ثوان طعاما لبعض الأسماك التي ركبوا البحر من أجل اصطيادها.

وأحس بالمزيد من دموعه تنهال على خديه، وفي غمرة تلك الهواجس أحسن بقعر الزورق ينزل إلى الأعماق من خلال جناحه الذي طلع الماء معه.

ومع هبوط الزورق نحو الأعماق انهال المزيد من دموعه، وبصفة لا إرادية مسح الماء عن عينيه بيده التي حررتها المياه من الزورق الذي ابتعد نحو الأعماق.

فتح عينيه فكانت المفاجأة: انفراج واضح في كثافة العاصفة وانخفاض في سرعتها وزمجرتها، استعاد قليلا من كيانه وسبح ببطء لا يريد أن يبتعد عن المكان الذي هوى الزورق فيه إلى الأعماق، والرؤية آخذة في الاتضاح وسرعة العاصفة سائرة في طريقها للتلاشي.

حاول أن يسبح واقفا عل قدماه ترتطمان بجزء من الزورق، خاب أمله، ولكن العاصفة توقفت والرؤية اتضحت تماما، لمح كتلة سابحة قربه، اقترب منها، كانت تلك الكتلة أحد الصيادين سابحا على سطح الماء، ومجموعة من الأسماك تجمعت حوله تنهش جسمه.

سخا بمزيد من الدموع:

* لقد مات ذلك الشاب الصياد الماهر.

علم أن لا فائدة من الانتظار، حاول السباحة إلى الأمام، لاحت كتلة أخرى سابحة أمامه تجمعت حولها طيور جارحة تصطاد منها، علم أن البر ليس ببعيد لوجود تلك الطيور التي لا تبتعد عن اليابسة عادة، اقترب من الكتلة فكانت أحد الصيادين.

سبح يحدوه الأمل في أن لا تخور قواه قبل أن يصل سباحة إلى البر.

سبح وسبح، وقبل غروب الشمس كان يشاهد حركة الصيادين على شاطئ الزوارق.

الشيخ بن احمدو